

سَاعِرُ حُكْمٍ عَلَيْكَ بِالْإِخْلَاصِ

بقلم فضيل الله

خليل حاوي عند « البصارة »

جميعها ، وعلى ان الوحدة الداخلية الضرورية لكل وجود
حي نخرها سوس الانحلال .

وكان الصمت نذيرا مرعبا للشاعر القابض على عنان
نفسه ، المنتمي الى حضارة يعتبرها اما ومرضعه ، لذلك لم
يكن مستبعدا ان يستفيق مذعورا ليرى ان جدران بيته قد
تهدمت في اعماقه ، وان حاضره تركه مشوش العينين ، اما
غده فنكره . . وهكذا يدفعه اخلاصه مع ذاته الى استشارة
حدس البصارة في ضميره ، فراح يعيد النظر في تركيب
الشخصية التي يتوخاها لنفسه على يعرف موضع الخلل .
طالما طوف في المجهول ، فابحر الى ضفاف « الكنج »
ورافق المجوس الى اوربا ، الا ان منارات الطريق ماتت
في عينيه ، ولم يعد سوى « مضغة تافهة في جوف حوت »
وشارف على الموت ، الا ان ضحكات الصغار ايقظته ،
فانتفض مكافحا ، ناذرا حياته في سبيل قضية تعطي
وجوده معنى : انهم اطفال اترابه ، يستحقون الحياة ،
يستحقون ان يفرش لهم خليل ضلوعه جسرا يعبرون
فوقه الى حياة النور . وفي ذروة حماسه ايقظ خليل
اله الخصب وحمله على ان يبارك النسل العتيد . . ثم
راح يتغنى بهم - يصلي لهم ، وكأنه يزرع لهم ان يكونوا
حقيقة لا وهما . ثم انتشى ، ولم يعد يصبر ، فصاح :

« ردني ربي الى ارضي اعطني للحياة »

الا ان ارضه تفجعه ، فهناك يرى ان العصر لم يزل
عصر سدوم وان اطفال احلامه لا مكان لهم بين قومه . .
فيروح يزرع الى ربه ويستمطر المعجزات ليحل الخصب
من جديد .

وبينما هو على تهاؤل تنعق اليوم في اعماقه اغنية
حزينة تذكره بلا جدوى تضحياته ، ولكنه يسرع في اسكانها
متكلا على جمر وخبز تزودهما من حب الصغار . مستعدا
للقاء الثلج ، سامدا بايمان من يردد :

« لسن يتخلى الصبح عنا اخر النهار »

غير ان الاخلاص ليس نعمة ، بل هو نسر يحدث
في شمس الواقع . الاخلاص حماسة يقين تحمل لنا اغصان
الزيتون حيننا ، وغراب شك يذهب باملنا او يعذب سمعنا
احيانا :

« سوف يمضون وتبقى فارغ الكفين ملصوبا وحيد »

« احرسي يا يومة التاريخ . . »

« سوف يمضون وتبقى ، فارغ الكفين . . »

« احرسي . . »

« سوف يمضون »

ويدفعه الحوار الى سؤال لا بد منه :

« الى اين ؟ »

وينظر الشاعر في اعماقه فيرى لاجبا تسطخب في
العمية ثم يلتفت حوله فاذا بمنارات الطريق تموت من
جديد ، واذا بالحوث يسرع نحوه ليعيده الى جوفه . .

الاخلاص ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، مميزة
تقصر عنها النفوس الضعيفة . فهي نادرة في التاريخ ، لايها
تفترض مواجهة الحقيقة العارية ، والحقيقة في عريها
قاسية لا ترحم .

والاخلاص ، في نظري ، شرط اساسي للعبقرية
الفنية ، مع ان القاعدة لا تعكس . فكم من ملخص لم
يعبأ الا بالحياة ، دون ان يغريه التعبير ، او دون ان يقدر
على الخلق .

وقد راينا الفلسفة الوجودية الحديثة تقوم على
الاخلاص كموقف من واقع الحياة ، وكقيمة اخلاقية اولى .
ولكن ان توجد لا يعني حتما ان تخلق ، اي ان تعبر عن
وجودك عن طريق العطاء الفني .

لكننا هنا بصدد شاعر اصبح الخلق تكلمة حتمية
لحياته ، فوجوده ترويض للعبارة بقدر ما هو ترويض
لواقع . وهو موجود متى وعى كونه ، وساد عليه باراده
مسؤولة ، فاخلص في معرفه ما يريد وفي تحقيقه ، وفي
التعبير عنه . فالعبارة بالنسبة له كالحركة بالنسبة للجسم
الحي . وكما تاتي الحركة دليلا على الحياة هكذا تكون
العبارة عنده دليلا على وجوده .

وقد تكون العبارة احيانا كانتفاضة السمعة قبيل
الانطفاء او كحركة التسميت قبل الفرق النهائي . وقد
تكون الحركة عملية استفزاز للهمة . وبعث للحياة ، على
سبيل اليباء الخارجي ، دافعها غريزة البقاء . كما تكون
العبارة عملية توضيح وتركيز ووسيلة أخيرة تجمع بها
ما توزع من نفوسنا ، فنعيه من جديد ونسيطر عليه .
والاخلاص يتوجه اولا نحو الذات فيحاول معرفتها ،
المعرفة التي تبعث في الانسان ثقة عظيمة . فيحقق ارادته
بحرية وانسجام مع نفسه ، ويعبر - اذا كان فاننا - عن
تلك الدروة من وجوده بنسوة واكتفاء .

وفي انطلاق الذات المخلصة نحو التحقيق . قد تكبت
اذا اصطدمت بدوات مريدة مضادة . الا انها تثور وتعرف
عندما تلتقي بمن قنعت وجوههم ، وخفيت دواتهم حتى
عن انفسهم .

لذلك يمكننا القول : بان المشكلة التي يجابهها خليل
حاوي والتي تمزق ذاته وتبعثر وعيه وارادته . وتلقني
في عالمه صمنا رهيبا يهدده بالانعدام ، هي مشكلة وجودية
صميمية تنبع من اعماق الفرد - الحضارة الذي يريد
الشاعر ان يكونه ، والذي يكافح للوصول اليه . اذ انسه
حصيلة شخصية متكاملة « فردية - حضارية - فنية » .
يوجد الشاعر بها اذ يوجدها .

اما ظهور التداخي في احدي هذه الزوايا من مثلث
ذاته ، فما هو الا دليل على ان الخلل واقع في الاجزاء

الشمع

دمشق في ٩٦١/٧/٥

كرصاصة بلهاء ، كالقدر الضرير
كان القطار وراء سكتته يسير
وأنا اسير ..
لا درب لي ، لا سقف يفرش ظله حولي ، وكابوس الهجير
رقطاء تباعني ، تمزقني ، وتنقني على سام الرصيف
كرماد منفضة الخريف
من أين .. ؟ لا ادري ، ولا أين المصير !
طفل بدون اسم ، بلا حس ، بلا وجه يسير
شبح يطوف لاهث الخطوات ، مختنق الضمير
ويهب صوت الريف أعماقي .. فأشعر بالحياه
فجرية الانداء ، خضراء الملامح ، بالنعيم متوجه
من داخلي تنداح كالعطر المخبأ في عروق بنفسجه
لكنها سرعان ما تخبو على السطح الموات
كفقاعة صفراء من زبد السوارع في الهجير
وأنا كمن في نومه .. بهذي ، يحلق ، أو يسير
انصفح الآلاف من هذا الجراد المستطير
لا عين ترمقني بحقد أو حنان
لا كف توفظني ، تمد لي التحية ، لا لسان
لا نعر ييسم من صميم القلب لي
وان ابتسم ..
فلما تصوره بجيبي من نعم !

★

ويصيح بي ، من سجنه الفخري ، تمساح بليد
« ماذا تريد ؟ »
- : « أنا ؟ .. ما أنا حتى أريد ! »
يا سيدي .. لا شيء ، لا ادري أفتش عن صديق
حي ، وأين الحي لا أبحث عن طريق
عن منفذ لافر من هذا الحريق . »

★

وأظل كالشبح المخدر عبر دنيا من قبور
ويظل في رأسي صرير
ذلك القطار وراء سكتته يسير
كرصاصة بلهاء ، كالقدر الضرير ..

علي كنعان

حمص

عندما لا تؤمن إلا بالانسان ، ويكون هذا الانسان
عبارة عن وجود حضارة يرتضيها فرد خلاق ، يصبح
الصمت ، دليلاً على ان الوجود الفردي - الحضاري مهدهد .
وصوت الشاعر هنا صوت رسول حمل الاخلاص
والبعث الى حضارته كي ينهض بها ، فيتم وحوده ، ويحقق
ذاته .

الا ان الصمت يربع والبومة تنعق ، والحوت يفغر
فاه .. مما يضطر الشاعر لان يعيد النظر في انتمائه
الحضاري ... اذ ان انهيار حضارته في ذاته باعث
على انهياره الفردي والفني ..

فكأنني به في عرض بحرنا المتوسط ، ينظر الى مناريتين
شاحبتين ، فيختار الى ايها يتجه ، وهو مجبر على الاختيار
لئلا يبقى فريسة لحوث التفاهة والعبث والعدمية .

يفوص في ذاته حيث الغموض يلف كل شيء
ويستعرض الطرق الممكنة .. فاذا بالبومة ترجع لتصرح
في اذنيه بصوت جن ساخر : « امامك حلان ، فاه ان تصبح
ناسكا على ضفاف حضارة أخرى ، حيث يلفك الصمت ،
ويمنع عليك الحلم بموسم الخمر والجمر ، الموسم الذي
طالما تجديتني به ..

« او ان تتجه في تيار حضارتك نحو مقاهي الشط
والخليج حيث الملل والتمويه . وحيث تصبح واحدا من
المسممين المسممين ، تنفي بجلدك المتمسح سهام التزوير
والخداع ، وفي اخر انتفاضة لك على المراوغة ترتجى يدك .
وتستمر اليوم في نعيها ، فتشرح للشاعر ان حله
الاول يعني كبت ذاته عن التحقيق ، الامر الذي يدفعه
حتما الى الاستعاضة عن رسالته السابقة بخلق عوالم
جديدة ، يكون فيها ملكا ورسولا بل الها .. الا ان هذه
العوالم تبقى في ضميره وحده ..

اما حله الثاني فيقوده الى مصير حزين ينقلب فيه
ساحرا مهورجا بين السحرة والمهرجين من ابناء سدوم .
تسكت اليوم لتتصمت لثورة الشاعر المزوجة بنوع
من الاسترحام - وكان خليلا يشعر بان هذه ألجن قد
يكون على حق - فيلفت نظره الى الصوت الخلاق الذي
سيملاً الدني ، الى الحياة العائدة مع دمه الذي يحيل العفن
ثريات من العافية ، الى عروق الرب المنتشية وصوته
الجديد .. وتجيء ردة الفعل من قبل الجن ، فيجيب الشاعر
بصلابة ووحشية منكرا :
- « لست أرى »

وكان الشمعة حكم عليها بالانطفاء فاذا بها تنتفض .
واذا بالمنارة المخلصة تلمع ثانية ، فتتقشع العتمة وتخرس
اصداء اليوم ، لنرى البحار يضحك من بصارته متجها مرة
ثانية الى الشاطيء الوحيد ، في يديه زفت وكبريت يحرق
بهما نسل العبيد ، وعلى شفثه بشارة ، بعد ان روض
العبارة ووعى ذاته واستبشر بحضارة من نسل الالهة ،
فاستعاد وجوده ..

اما اذا سألتني عن مدى قوة هذه الضحكة ، واذا
ما كانت سوى ضحكة احياء وتمن ، فاني أجيبك بان
اليوم - بحكم الاخلاص المرهق - ستنعق من جديد ..
الا انه يبدو لي ان هذه الضحكة هي الحل الوحيد .

اسعد خير الله

(الجامعة الاميركية) - بيروت